تكفُّلُ الله تعالى بحفظ رسوله

سيدنا محمد ﷺ

مِن شرِّ وأذى أعدائه

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(حول تفسير سورة العلق)

من الصفحة ١٢٦ حتى الصفحة ١٥٨

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

ـالمؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

قول الله تعالى:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل بعد ردع سابق ، وزجر له بعد زجر ، فهو خاسر خاسِيء ، سفيه وقح.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: لا تطعه يا رسول الله يا محمد فيما ينهاك عنه ، من المداومة على الإكثار من عبادتك لربك ، وصَلِّ لله تعالى حيث شئت ، ولا تباله ولا يَهمَنَّك أمره ، فإن الله تعالى هو حافظك ،

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره.

(٢) جماعات جماعات.

وناصرك ، وكافيك شرَّه وَشَرَّ كل ذي شر ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ .

فقد تكفل الله تعالى بحفظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفايته أذاهم وشرهم ، كما تكفل برَدِّهم على أعقابهم خاسئين؛ في جميع المواطن التي كانوا فيها يحاولون أَنْ يتعرضوا لإيذائه صلى الله عليه وآله وسلم .

فمنْ ذلك ما أخبر الله تعالى عنه في قوله سبحانه : ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: اجهر بدعوتك إلى الله تعالى ، وبَلِّغ ما أمرك الله تعالى ، معلناً ذلك ، ولا يهمنَّك أمر المشركين وكثرتهم ، والله تعالى هو يكفيك أمر المستهزئين ، الذين يريدون أن يصدوك عن تبليغ رسالة ربك ، فهو سبحانه يأخذهم بالعقوبات العاجلة ، ويكفيك شرهم .

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عطل السهمي ، والعاص بن وائل .

فأتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) ، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في (الدلائل) ، وابن مَرْدُويه بسند حسن ، والضياء في (المختارة) كما في (الدر المنثور) وغيره.

وسلم ، فشكاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واستهزاءهم به.

فقال جبريل عليه السلام: أرني إيَّاهم ، فأراه الوليد فأومأ جبريل إلى أكحله.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً».

فقال جبريل: كفيتكه.

ثم أراه الأسود بن المطلب ، فأومأ جبريل إلى عينيه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً».

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه.

ثم أراه الأسود بن عبد يغوث ، فأومأ جبريل إلى رأسه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً».

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه.

ثم أراه الحارث ، فأومأ جبريل عليه السلام إلى بطنه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعتَ شيئاً».

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه.

ثم أراه العاص بن وائل ، فأومأ جبريل إلى أخمصه ـ عقب قدمه ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً».

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه.

فأما الوليد بن المغيرة فمرَّ برجل من خزاعة وهو يُريشُ نبلاً ، فأصاب أكحله ، فقطعها.

وأما الأسود بن المطلب فنزل تحت سمرة ـ شجرة ـ فجعل يقول: يا بنيَّ ألا تدفعون عني ، قدْ هلكت ، وطعنتُ بالشوك في عيني ، فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً ، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.

وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قُروح فمات منها.

وأما الحارث فأخذه الماء الأصفر في بطنه ، حتى خرج خرؤه من فيه ، فمات منه.

وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف ، فربض على شِبْرقة ، فَدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته.

فانظر أيها العاقل في حفظ الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفايته شر أعدائه.

ومن ذلك ردُّه سبحانه وتعالى مَكْر أعدائه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة هجرته ، وحفظ الله تعالى له:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى فضله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ودفاعه عنه ، وحفظه له من المشركين ، حين كان في مكة المكرمة ، وما عزم عليه المشركون ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، قال: تشاورت قريش ليلة بمكة ـ أي: ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق.

يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال بعضهم: بل اقتلوه.

وقال بعضهم: بل أخرجوه ـ أي: من مكة المكرمة ـ.

قال: فأطلع الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فبات علي بن أبي طالب رضي الله عنه على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعند ابن إسحق وغيره: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فخرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار ـ أي: غار ثور ـ ومعه أبو بكر رضي الله عنه.

وبات المشركون تلك الليلة يحرسون علياً رضي الله عنه، يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه علياً رضي الله عنه ردَّ الله مكرهم.

فقالوا: أين صاحبك؟

قال: لا أدري.

فاقتصُّوا ـ أي: تَتَبَّعُوا ـ أثره ـ أثر الخطوات ـ فلما بلغوا

الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فرأوا على باب الغار نسيج العنكبوت.

فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه.

فمكث في الغار ثلاث ليال ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه[1].

وجاء في (مسند) البزار ، من حديث أبي مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم يَتَحدَّثون ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تعالى شجرة فنبتتْ في وجه الغار ، فسترت وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار[2].

ونقل في (المواهب) عن المحدث العلامة الفقيه المالكي قاسم بن ثابت في (الدلائل) ، ـ أي: دلائل النبوّة ـ قال: وأرسل الله تعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، فعشَّشَتا على بابه ، وذلك مِمَّا صدَّ المشركين عن دخول الغار ، فردهم الله تعالى خاسئين خاسرين.

وفي دخوله صلى الله عليه وآله وسلم الغار حين خرج من مكة مُهاجراً يبين الله تعالى كفالته بالنصر والتأييد ، والوقاية والحفظ

---

(١) روى ذلك الإمام أحمد ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم وغيرهم ، كما في (الدر المنثور) اهـ ، ومكثه صلى الله عليه وآله وسلم في الغار ثلاث ليال هو المشهور الذي عليه الأكثر كما في (المواهب وشرحها).

(٢) كذا في (المواهب وشرحها).

لهذا الرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقول سبحانه وتعالى معلناً ذلك :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي : تنصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنَّ الله تعالى ناصره وحافظه ، وكافيه شر أعدائه .

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ أي : كما نصره الله تعالى وحفظه ، عام هجرته إلى المدينة لَمَّا همَّ المشركون بقتله ، أو حبسه ، أو نفيه ، فخرج من بينهم مهاجراً إلى المدينة المنورة ، ومعه صاحبه ، وهو الصَّديق الصادق ، والصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه ، وتوجَّه إلى غار ثور ، وبقي ثلاثة أيام فيه ، ليرجع الطلب من المشركين الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يتوجه ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة المنورة به صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي خلال المدة في الغار كان أبو بكر رضي الله عنه يعتريه الحزن والخوف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أَن يناله أذىً من المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم يُسَكنه ويُبشره ، ويقول له: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

كما روى الشيخان ، والإمام أحمد واللفظ له ، عن أنس رضي الله عنه ، أن أبا بكر رضي الله عنه حدّثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم ـ أي: المشركين ـ نظر إلى قدميه لأبصرنا ، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: بالحفظ والتأييد ، والوقاية من شرور الأعداء ، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة الكرام عليهم السلام.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

روى البيهقي في (الأسماء والصفات) ، وابن المنذر وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ قال: هي: الشرك ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال: هي: لا إله إلاّ الله.

وروى الشيخان ، وأصحاب السنن ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الرجل: يا رسول الله الرجلُ يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى».

وقد أشار صاحب البردة إلى قصّة الغار ، وما جرى في ذلك مِنَ المعجزات ، والوقايات الإلٰهية التي حفظ الله تعالى بها حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رحمه الله تعالى:

أقسمتُ بالقمر المنشقِّ إنَّ له
مِنْ قلبه نِسْبة مبرورة القَسَم
وما حوىٰ الغار مِنْ خير ومِنْ كرم
وكلُّ طرف من الكفار عَنْه عَمي
فالصِّدق[1] في الغار والصِّديق لم يرما[2]
وهم يقولون مافي الغار من أرِم[3]
ظَنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خَيْر البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عَن مضاعفة
مِنْ الدُّروع[4] وعن عالٍ من الأُطُمِ[5]

ومِنْ ذلك وقاية الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طريق هجرته ، حين تعرض سراقة بن مالك بن جعشم ، لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه الصديق ، ليلة

---

(١) أي: النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصادق الأمين.
(٢) أي: لم يبرحا.
(٣) أي: من أحد نظراً منهم إلى حوم الحمام ونسيج العنكبوت.
(٤) أي: عن الدروع الكثيرة.
(٥) أي: الحصون التي يتحصن بها العالية المنيعة.

الهجرة ، يُريد منعهما أو ردّهما إلى قومهما ـ وكان مُشركاً ثم أسلم بَعْدُ[1].

قال في (المواهب وشرحه): وجاء في رواية للبخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال: تبعنا ـ أي: لحقنا ـ سراقة ونحن في جلد من الأرض ، فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قدْ لحقنا.

قال: «لا تحزن إن الله معنا».

فلما دنا منا ، وكان بيننا وبينه رمحان أو ثلاثة ، قلت: هذا الطلب قد لحقنا ـ وبكيتُ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يبكيك»؟

قلت: أمَا والله ما على نفسي أبكي ، ولكن عليك ـ فبكىٰ أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله أُتينا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلاَّ» ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدعوات.

وفي رواية الإسماعيلي وغيره ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اكفناه بما شئتَ».

وفي حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري ، فقال صلى الله

---

(١) قال في (شرح المواهب): أسلم سراقة عنده صلى الله عليه وآله وسلم بالجعرانة ، منصرفه صلى الله عليه وآله وسلم من حنين والطائف ، وروى عنه ابن عباس وجابر ، وابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم ، وابن المسيب وطاووس ، وأخرج له البخاري ، والأربعة ، والإمام أحمد. اهـ.

عليه وآله وسلم: «اللهم اصرعه» فصرعه فرسه فساخت ـ أي: غاصت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين ـ كما في حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي حديث أسماء رضي الله عنها عند الطبراني، فوقعتْ ـ الفرس ـ لمنخريها.

وعند البزار: فارتطمتْ فرسه به إلى بطنها.

وعند الإسماعيلي: فساخت في الأرض إلى بطنها.

وطلب سراقة الأمان، فقال: أعلمُ أن قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي.

وعند الإسماعيلي فقال: قد علمتُ يا محمد أنَّ هذا عملك ـ أي: دعاؤك ـ فادعُ الله أن ينجيني مما أنا فيه، ولكما عليَّ أن أردَّ الناس عنكما.

وفي رواية: ولا أضركما وأنا لكما نافع غير ضار.

فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] أي: فأطلقته الأرض.

قال سراقة: فركبت فرسي، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أَنْ سَيَظْهر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاء في رواية للبخاري، عن أنس رضي الله عنه قال: فالتفت أبو بكر رضي الله عنه فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبيُّ الله صلى الله عليه

---

(١) انظر جميع ذلك في (المواهب وشرحها).

وآله وسلم فقال: «اللهم اصرعه» فصرعه الفرس، ثم قامت ـ الفرس ـ تحمحم ـ والحمحمة: صوت الفرس ـ.

فقال سراقة: يا نبي الله مُرني بما شئتَ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فقف مكانك، لا تتركنَّ أحداً يلحق بنا».

قال أنس رضي الله عنه: فكان أول النهار جاهداً على نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان آخر النهار مَسْلَحةً له ـ أي: حارساً له بسلاحه.

قال في (شرح المواهب): وذكر ابن سعد أنه لما رجع سراقة قال لقريش: قد عرفتم نَظري بالطريق وبالأَثَر، وقد استبرأتُ لكم فلم أَر شيئاً؛ فَرجعوا. اهـ.

فوفَّىٰ سراقة بعهده أن لا يترك أحداً من المشركين يلحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال في (شرح المواهب): وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لسراقة: «كيف بك إذا لبست سِواري كسرى».

قال: وذكرِ ابن المنير أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال له ذلك يوم لحقهما في الهجرة، فعجب ـ سراقة ـ من ذلك، فلما أُتِيَ بهما عمر رضي الله عنه، وهو خليفة، فأتي بسوارِي كسرى وبتاجه وبمنطقته، فدعا عمر رضي الله عنه سراقة فألبسه السِّوارين، وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابياً مِنْ بني

مدلج ، ورفع عمر رضي الله عنه صوته ، ثم قسم ذلك بين المسلمين.

فانظر أيها العاقل في حفظ الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقايته له من شرور أعدائه الألداء ، وانظر في تلك المعجزات التي أجراها الله تعالى على يده صلى الله عليه وآله وسلم ، وانظر كيف رَدَّ الله تعالى عنه مكر أعدائه الذين تعاونوا ، وتكاثروا ، وبذلوا جهودهم في منعه من الهجرة ، وحاولوا قتله ، وقد حفظه الله تعالى ، ووقاه صلى الله عليه وآله وسلم شرهم ، وردهم على أعقابهم خاسئين خاسرين.

* * *

عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم
صلى الله عليه وآله وسلم
عن كل ما يمنعه عن تبليغ الرسالة
وتأييده سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم
وَرَدِّ مكرِ أعدائه عليهم

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ أي: بلّغ أنت يا رسول الله رسالتي، وأنا حافظك، وناصرك، ومؤيدك، فلا تخف ولا تحزن، فلن يَصِل إليك أحد من أعدائك بسوء أو أذى، بل الله تعالى هُوَ يردُّهم على أعقابهم خاسئين.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول هذه الآية يُحرس ليلاً.

روى الترمذي وغيره، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ قالت: فأخرج

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من القبة وقال: «يا أيها الناس: انصرفوا ، فقد عصمني الله عز وجل».

وكان ذلك على أثر هجرته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ذلك في سنة اثنين من الهجرة[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ قال الإمام البخاري رضي الله عنه: قال الزهري: من الله تعالى الرسالة ، وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم البلاغ ، وعلينا التسليم ـ أي: القبول والعمل ـ.

وقد شهدت له صلى الله عليه وآله وسلم أمته بإبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل ، وذلك في خطبته يوم حجة الوداع:

روى الإمام مسلم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته يوم حجة الوداع:

«أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت ، وأدَّيت ، ونَصحت.

فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ، وينكّسها إليهم ويقول: «اللهم هَلْ بلّغتُ» أي: يُشهد الله عز وجل على تبليغه.

وفي رواية الإمام أحمد: ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هَلْ بلغت» قال ذلك مراراً.

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير وغيره.

وقاية الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم
مِنْ سُمِّ الشاة التي أهداها إليه اليهود

روى الإمام البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما فُتحتْ خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاة فيها سُمّ ـ أهدتها إليه اليهودية ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمعوا لي مَنْ كان هَهنا مِنَ اليهود» فَجُمعوا له.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أبوكم»؟

قالوا: فلان.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «كذبتم بل أبوكم فلان».

قالوا: صدقتَ وبررتَ.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إِنْ سألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفته ، كما عَرَفْتَه في أبينا.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أهل النار»؟

قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اخسؤوا فيها ، والله لا نخلفكم فيها أبداً».

ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إنْ سَألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا»؟

قالوا: نعم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حملكم على هذا»؟

قالوا: أردنا إن كنتَ كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لَمْ يَضرّك) كذا في (جامع الأصول).

وقال في معنى: اخسؤوا: يقال: خسأتَ الكلب إذا طردتَه وأبعدته. اهـ.

وفي رواية لأبي داود، من حديث جابر رضي الله عنه: أنَّ يهودية من أهل خيبر سمَّت شاة مَصْلية ـ أي: مشوية ـ، ثم أهدتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: هي من جملة المتعاونين في وضع السم في الشاة ـ وأرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاها ـ أي: مع جملة من اليهود الذين تقدم ذكرهم ـ.

فقال لها: «سممت هذه الشاة»؟

قالت اليهودية: مَنْ أخبرك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أخبرتني هذه الذراع التي بيدي».

فقالت اليهودية: نعم.

قال: «وما أردت إلى ذلك».

قالت: قلت: إن كان نبياً لم يضره، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. الحديث كما في (جامع الأصول).

عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من أعدائه المشركين ورد كيدهم ومِنْ ذلك ما وقع في غزوة ذات الرِّقاع

روى الشيخان، عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذات الرقاع ـ وفي رواية لهما: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غَزَاةً قِبل نَجْد ـ فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القائلة ـ أي: وقت القيلولة ـ في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت شجرة، فعلَّق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس ـ أي: الصحابة في الوادي يستظلُّون بالشجر ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائم، فأَخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، والسيف صلتاً في يديه.

فقال: مَنْ يمنعك مني؟

قلت: الله، فشام السيفَ، فهاهوَ ذا جالس».

ثُم لم يَعْرِض له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مَلِكَ

قومه ، فانصرف حين عفا عنه فقال ـ الرجل ـ: لا أكون في قوم هم حرب لك.

قال في (المواهب وشرحها): وعند أبي عوانة في حديث جابر رضي الله عنه المتقدم ، فقال: مَنْ يمنعك مني.

فقال له عليه الصلاة والسلام: «اللهُ» فسقط السيف مِنْ يده ، فأخذه صلى الله عليه وآله وسلم فقال ـ للرجل ـ: «من يمنعك مني».

فقال الرجل: كن خير آخذ ـ استعمل الحلم ـ.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تشهد أن لا إلَه إلا الله وأني رسول الله».

فقال الأعرابي: أعاهدك على أنْ لا أقاتلك ، ولا أكونَ مع قوم يقاتلونك.

فخَلَّى سبيله ، فجاء إلى قومه فقال لهم: جئتكم مِنْ عند خير الناس صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي (المواهب وشرحها) نقلاً عن الواقدي في قصة الرجل الأعرابي المتقدم ذكره ـ أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير ، وفي رواية ابن إسحاق: ثم أسلم بَعْدُ[1]. اهـ.

---

(١) كذا في (جامع الأصول) ، قال: والعضاه: كل شجر له شوك ، كالسَلم والأراك ، وسيف صَلْت إذا كان خارجاً مِنْ غِمده ، وشِمتُ السيف: إذا أغمدته ، وإذا سللته فهو من الأضداد. اهـ والمراد فشام السيف جعله في غمده.

ومن ذلك عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من مكر المنافقين وهو راجع من تبوك ليلاً وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

روى البيهقي في (الدلائل) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقودها، وعمَّار يسوقها، حتى إذا كنا بالعقبة[1]، فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها ـ أي: في طريق العقبة ـ فأخبرته صلى الله عليه وآله وسلم، فصرخ بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فولَّوا مدبرين.

فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل عرفتم القوم»؟

قلنا: لا يا رسول الله كانوا متلثِّمين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة.

هل تدرون ما أرادوا»؟

قلنا: لا يا رسول الله.

قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة فيلقوه فيها».

وفي رواية للبيهقي: فَأُخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبرهم ـ أي: فنزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره خبرهم ـ ثم قال

---

(١) وكان ذلك ليلاً، وهو صلى الله عليه وآله وسلم راجع من تبوك كما في بقية الروايات.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة».

قلنا: يا رسول الله وما الدُّبَيْلة؟

قال: «شهاب من نار يوضع على نياط ـ عروق ـ قلب أحدهم فيهلك» أي: يموت.

وفي رواية للبيهقي: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل عرفتَ مِن القوم أحداً»؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: لا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح».

فلما أصبح سمَّاهم لحذيفة رضي الله عنه.

قال حذيفة رضي الله عنه: فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله، وأرادوا قتله صلى الله عليه وآله وسلم، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك.

قال حذيفة رضي الله عنه: وذلك قول الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ الآية[1].

قال في (الاستيعاب): وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَسأل حذيفة عن المنافقين، وهو ـ أي: حذيفة ـ معروف في

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره، وجاء في بعض روايات الطبراني وغيره أن المنافقين الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحذيفة كانوا: أربعة عشر رجلاً، وفي رواية كانوا: خمسة عشر. اهـ.

الصحابة بصاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان عمر رضي الله عنه ـ أي: حين كان خليفة ـ ينظر إلى حذيفة عند موت مَنْ مات منهم ـ أي: من المنافقين الذين سماهم له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنْ لَم يَشهد جنازته حذيفة لم يَشهدها عمر رضي الله عنه. اهـ.

ومن ذلك عصمة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ شَيبة بن عثمان قبل إسلامه:

روى البيهقي وأبو نعيم ، عن عكرمة قال: قال شيبة بن عثمان: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حُنيناً ، فذكرتُ أبي وعمي قتلهما عليٌّ وحمزة ، فقلت: اليوم أُدرك ثأري من محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فجئته مِنْ خلفه ، فدنوتُ منه ، حتى لم يبق إلا أنْ أسوره بالسيف ، إذ وقع شُواظ من نار بيني وبينه ، كأنَّه البرق ، فنكصتُ ـ أي: رجعتُ ـ القهقرى ـ أي: إلى الخلْف من شدة الخوف ـ.

فالتفتَ إليَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «تعال يا شيبة ، أُدنُ مني» فوضع يَدَه على صدري ، واستخرج الله الشيطان من قلبي فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ومن ذلك عصمته صلى الله عليه وآله وسلم من النضر بن الحارث:

روى أبو نعيم ، عن عروة بن الزبير رضي الله عنه ، أنَّ النضر بن

---

(١) كذا في سيرة خير العباد صلى الله عليه وآله وسلم.

الحارث كان يُؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتعرَّض له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً يريد حاجته في نصف النهار في حر شديد ، فبلغ أسفل من ثَـنِـيَّـة الحَجون ، فرآه النضر بن الحارث ، فقال: لا أجده أبداً أخلى منه الساعة ، فأغتاله ـ أي: يقتله ـ.

فدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم انصرف راجعاً مرعوباً إلى منزله ، فلقي أبا جهل ، فقال له: أبو جهل مِنْ أين الآن جئت.

فقال النضر: اتبعت محمداً رجاء أن أغتاله ، وهو وحده ، فإذا أُسُود تضرب بأنيابها على رأسي ، فاتحة أفواهها؛ فزعرتُ ـ أي: خفت منها ـ وولَّيت راجعاً.

فقال أبو جهل: هذا بعض سحره.

ومن وقاية الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم شر أعدائه ، ما جاء في قصة امرأة أبي لهب وردِّها خاسئة:

جاء في الحديث ، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضي الله عنهما قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب ولها وَلْوَلة ، وفي يدها فِهْر ـ أي: حَجَر ـ وهي تقول:

مذمماً أبينا ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس ، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه ـ أي: امرأة

أبي لهب ـ وأنا أخاف أن تراك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها لن تراني» وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرآناً اعتصم به منها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه، فلم تر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هَجاني؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا وَربِّ هذا البيت ما هجاك؟

فانصرفت وهي تقول: قد علمتْ قريش أني بنت سيدها[1].

وفي رواية للبيهقي في (الدلائل) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «قل لها: هَل تَرَيْنَ عندي أحداً، فإنها لن تراني، جعل الله تعالى بيني وبينها حجاباً».

فقال لها أبو بكر رضي الله عنه، فقالت له: أتهزأ بي، والله ما أرى عندك أحداً.

وسبب نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السورة، هو ما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرها[2]، عن ابن عباس رضي

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلىٰ، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في (الدلائل)، كذا في (الدر المنثور).

(٢) كما في (تيسير الوصول) وغيره.

الله عنهما أنه قال: لمَّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عَديٍّ» لبطون قريش، حتى اجتمعوا.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أَنَّ خيلاً ـ أي: جيشاً عظيماً ذا عدَّة وعدد ـ بالوادي ـ أي: خلفكم وقريباً منكم ـ تُريد أن تُغير عليكم ـ أي: على حين غفلة منكم ـ أَكُنْتُم مُصدِّقيَّ» أي: هل تُصَدِّقونني في هذا الخبر العظيم؟

قالوا ـ أي: كلهم ـ: نعم نصدقك ما جرَّبنا عليك إلا صِدْقا ـ أي: جربناك في كل الأمور فما عرفنا منك إلا الصدق، ولم تكذب قطُّ ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإني نذير لكم بَيْن يديْ عذاب شديد» والمعنى: إني: أُنذركم إنْ بقيتم على كفركم وشرككم، أُنذركم عذاب الله الشديد، فآمنوا بالله وحده لا شريك له، وأسلموا له، واشهدوا أنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تكونوا آمنين مكرمين في الدنيا والآخرة.

فقال أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟

فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي: نزلت السورة كلها.

ومعنى التباب: الخسران والهلاك.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على حَقِّيَّة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما سبحانه بالشقاء وعدم

الإيمان ، ولم يقيض لهما أنْ يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا مُسِرّاً ، ولا معلناً ، فكان هذا من أقوىٰ الأدلة على حقية نبوته الجلية صلى الله عليه وآله وسلم[1].

كما أنَّ قولهم ما جرَّبنا عليك يا محمد إلا صدقاً ـ كما تقدَّم ـ هذا يدل على أنَّ أعداءه من المشركين كانوا مجمعين على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمانته ، وعفته ، ونزاهته ، ما عثروا له على كذبة قطُّ لدى التجربة ، ولذلك كانوا يسمونه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ قبل النبوة والرسالة.

فلما نبأه الله تعالى وأرسله ، وأنزل القرآن الكريم ، وقَرأَ عليهم آياته ، وعرفوا من قلوبهم أنه صادق ، وأنَّ هذا الكلام وهو القرآن هو كلام الله تعالى؛ ليس من كلام البشر لإعجازه ، فهناك من عرف واعترف من المشركين ، وآمن بأن سيدنا محمداً رسول الله ، وأَنَّ هذا الكتاب الذي جاء به هو من عند الله تعالى ، فدخل في الإسلام ، وأعلن بذلك ، وأقرَّ بشهادة أن لا إلَه إلا الله محمد رسول الله ، وهناك من عرف ولكن لَمْ يعترف ، ولم يُقرّ ، بل راح يَجحد وينكر رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، ويزعم أنه شاعر أو ساحر.. إلخ مِنْ أقوالهم المتناقضة ، وسبب إنكارهم وجحودهم هو الكِبْرُ والعناد ، والعصبية الجاهلية العمياء ، في حين أنهم علموا أنه حقاً: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يُقِرّوا ، ولم يعترفوا ، بل جحدوا وأنكروا ما عرفوه ، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي:

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير وغيره.

ينكرون ما جئتهم به ، ويجحدون بعد أن عرفوا أَنَّ جميع ما جئتهم به فهو حق .

كما أخبر الله تعالى عن موقف فرعون وقومه مع موسى عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي: تكبراً وتعاظماً ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

ومِنَ المعلوم أَنَّ الجُحود هو إنكار الحق بعد العلم بأنه حق.

ويبين لك ذلك ما رواه بعض أصحاب السير ، أن أبا جهل ، سئل فقيل له: هل كنتم تتَّهمون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكذب قبل أن يقول مقالته ـ أي: أنَّه رسول الله ، وجاء بكتاب من عند الله تعالى.

فقال أبو جهل: لقد كان محمد وهو شابٌّ يُدعىٰ الصادق الأمين ـ أي: كلنا ندْعوه الصادق الأمين ـ ما جرَّبنا عليه إلاّ صدقاً ، فلما وخطه الشيب ـ أي: بلغ أربعين سنة ، وقارب المشيب ـ لم يكن ليكذب على الله تعالى.

فقيل لأبي جهل: إذاً لِمَ لا تتبعونه ـ أي: وقد علمتم أنه الصادق الأمين ، فلِمَ لَمْ تؤمنوا به وتتبعوه؟

فقال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرفَ ـ أي: التعالي في المفاخر والأنساب ، والأحساب والمكارم ـ فأطعم بنو هاشم ـ أي: أطعموا المساكين والفقراء ـ فأطعمنا ، وسَقَوا فسقينا ، وأجاروا ـ أي: أجاروا من استجار بهم ـ فأجرنا ، حتى كنا كفرسي رِهان ـ أي: سواء في المفاخر ـ ، ثم افتخر علينا بنو هاشم فقالوا:

منا نبيٌّ ـ أي: نبي يوحي الله تعالى إليه ، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال أبو جهل: فَمِنْ أَيْن ندرك هذا؟ أي: نأتي بنبي ـ أي: فراحوا ينكرون رسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى ما تفتخر عليهم بنو هاشم ـ.

فانظر أيها العاقل إلىٰ هذا الجهل العميق ، المظلم القاتم ، وحُقَّ أن يقال لأبي جهل: أبو جهل.

روى الحاكم وصححه ، والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ، فكأنه رَقَّ له ـ أي: لان قلبه وانشرح للقرآن ـ.

فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتىٰ الوليد بن المغيرة فقال له أبو جهل: يا عم إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنك أتيتَ محمداً لتعرض لما قِبله ـ أي: لتلمس منه عطاء المال ـ.

فقال الوليد: قد علمتْ قريش أني من أكثرهم مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يَبْلغ قومك أنك منكر ، وأنك كاره له ـ أي: لما سمعه من القرآن الكريم ، الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال الوليد: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ، ولا بقصيده مني ، والله ما يُشبه الذي يقول ـ أي: القرآن الذي سمعه ـ ما يشبه من هذا ـ أي: لا يُشبه الشعر ولا الرجز ـ ووالله إنَّ

لقوله الذي يقول ـ أي: القرآن ـ لحلاوة ، وإنّ عليه لَطَلاوة ، وإنّه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وإنّه ليعلو ـ أي: ليعلوا فوق كل كلام ـ ولا يُعلىٰ عليه ، وإنه ليحطم ما تحته.

فقال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ـ أي: تطعن وتنكر ما سمعته من القرآن ـ.

فقال الوليد: فدعني حتى أفكِّر ـ ففكّر ، فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثره ـ أي: يأخذه ـ عن غيره.

فنزلت فيه الآيات: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: عرف أَنَّ هذا القرآن ليس من كلام البشر؛ بل هو كلام ربِّ العالمين؛ ولكنه جحد ذلك وأنكر عناداً وكبراً.

قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: أسفل الجحيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا يموت فيها ولا يحيى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُلوِّح الجلد فتحرقه ويتغيَّر لونه حتى يصير أسود من الليل المظلم. اهـ.

فلما سمع الوليد بن المغيرة القرآن الكريم مِنْ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رَقَّ له ، وعرف أنه حقاً كلام الله تعالى ، وأَنَّه أنزله الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعرف أنه الحق ، وأنّ هذا القرآن ليعلو ولا يُعلى عليه؛ ثم بعد ذلك جحد وأنكر وأعرض ، واستكبر عِناداً وجحوداً.

وروى ابن إسحق وغيره ، عن مُحمد بن كعب القرظي قال:

حُدّثتُ أَنَّ عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش أَلاَ أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيَّها شاء ، ويكفَّ عنا ، ـ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأى كفار قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ـ.

فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلِّمه.

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا ابن أخي إنك مِنَّا حيثُ علمتَ، من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به مَنْ مضى مِن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل يا أبا الوليد».

فقال: يا ابن أخي إن كنتَ تُريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً: جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً: سوَّدناك علينا ـ أي: جعلناك سيداً علينا ـ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً: ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيَّاً تراه لا تستطيع رَدَّه عن نفسك: طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه.

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع منه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغتَ يا أبا الوليد»؟

قال: نعم.

قال: «فاستمع مني».

قال عتبة: أفعل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ حمٓ ۝٢ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٤ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أَنْصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع ، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا الوليد قد سمعت ما سمعتَ ، فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد.

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها لي ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزِلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي جاء به نبأ ـ أي:

نبأ عظيم ـ ، فإن تُصبه العرب فَقَد كفيتموه بغيركم ، وإنْ يَظهر علىٰ العرب فملكه ملككم وعزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . ا هـ.

وفي بعض الروايات قال لهم عتبة: فأجابني ـ أي: محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ بشيء والله ما هو بشعر، ولا كهانة، ولا سحر، وقرأ عليَّ سورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فناشدته بالرحم أَنْ يكفَّ ، وقد علمتم أَنَّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيتُ أن ينزل بكم العذاب. ا هـ .

وقصة عتبة بن ربيعة ، وإرسال قومه له حتى يُكلِّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدّم ، رواها ابن أبي شيبة ، وعَبْدُ بن حميد ، وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في (الدلائل)، وابن إسحاق ، وابن عساكر ، مع اختلاف بعض الألفاظ ، كذا في (الدر المنثور) ، وتفسير الحافظ ابن كثير وغيرهما.

ومما تقدم يعلم العاقل موقف الجبابرة الكفرة ، والعتاة الفجرة ، ويَعلَم كِبْرهم وشدة عنادهم وعِدائهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجحودهم وإنكارهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بعدما تبيَّن لهم أنه الحق ، وأنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأَنَّ الكتاب الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم هو كلام الله تعالى المعجز ، الذي يَعلو ولا يُعلى عليه ، ومع ذلك فإنَّ الكفار عاندوا ، وجحدوا ، وأنكروا ، ومِنَ المعلوم أَنّ العنيد هو كالحديد ، لا تلينه إلا النار.

قال الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ أي: الكفار يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.